التكفيريّة الإسلاميّة.. انتحار الأنا وإرهاب الآخر

الشيخ الدكتور نجف علي ميرزائي[1]

مُستَخلَص:

تتمثّل الهوية الأخطر التي ترسمها الحركات التكفيريّة في صفحات تاريخ الإسلام المضيئة بالأمن والسلام والطمأنينة في تقديم الإسلام على أنّه شريعة القتل والجرائم، وأنّ نبيَّ الإسلام ﷺ هو نبيّ العنف والعدوان والقتل! وهذه أكبر خيانة ترتكبها هذه الحركات الإرهابيّة في حقّ الإسلام ورسول الرحمة والإنسانيّة، وفي حقّ الله ودينه. ومن الواضح أنّ الشخصيّة التكفيريّة في مراحلها كلّها قد أُصيبت بخلل التوازن النفسيّ على مستوى الأنا والنفس المقترفة لهذه الجرائم؛ ولهذا، فإنّ النفس حينما تفقد العزّة والكرامة ويحلّ محلّها الهوان والذّل، فإنّ الأرضيّة تصبح ملائمة لولوج صاحبها الكبائر كلّها، ويستعدّ للشقاق والخلاف والفتنة.

وتكمن أهمّيّة هذه المقالة في أنّها تعالج بالتحليل والنقد قضيّة في غاية الحساسيّة والخطورة في آن واحد، تتمثّل في قضيّة لها جذورها التاريخيّة بعيدة الأمد، يُعاد إحياؤها بكلّ ما تحمل من خشونة وغلظة في كلّ زمان ومكان، وحيث يمكن باسم الدين والله تعالى، وهي تعود في جذورها إلى قضيّة فهم الدين والتديّن من جهة، وإلى فقهٍ معيّنٍ نشأ في الإسلام عن سوء فهم أو عن قصد وعمد في نظرة الدين إلى الآخر عند

(1) باحث متخصّص في الفكر الإسلاميّ، من إيران.

هولاء الإرهابيّين والتكفيريّين، بما يستدعي تحليله ورصده بدقّة علميّة ومدارسته بمنهجيّة موضوعيّة بعيدًا عن الغضب الشديد القائم تجاه جرائم هذه الفئات الضالّة والمنحرفة والمجرمة.

كلمات مفتاحيّة:

الحركات التكفيريّة، الأنا التكفيريّة، انتحار الأنا، إلغاء الآخر، إقصاء الآخر، الجهاد، الإرهاب.

مقدّمة:

إنّ الخلط الكبير الحاصل بين الأنا والآخر أو بين الذات الإسلاميّة والغير أدّى بالحركات التكفيريّة إلى فتح معارك عدوانيّة وفتن كبيرة بين أبناء المسلمين أنفسهم في كلّ اتّجاه، فلا تخلو بقعة من أرض المسلمين إلّا وفيها شيء من الفتنة والبغي والاقتتال والتكفير بين فئة من المسلمين ومجموعة من أبناء الأمّة. وبات انتشار الحركات التكفيريّة ينذر بانهيارات أكبر، ولا سيّما مع ما ترسله هذه الحركات المتطرّفة والإرهابيّة من رسائل في الاتّجاهات كلّها، أقواها ما يبعث على القلق والخوف والفزع في نفوس غير المسلمين بأنّ الإسلام هو شريعة القتل! ما يعبّر عن خيانة عظمى في حقّ الإسلام والإنسانيّة معًا.

وعلى الرغم من تعدّد أسباب شيوع الإرهاب والتغطّي بلباس الدين والإسلام ورسوله ﷺ، لكنْ ما لا شكّ فيه أنّ ما يتعلّق بإشكاليّة العلاقة بين النفس المتشدّدة والمتطرّفة والأنا الإرهابيّة مع الآخر الضحيّة؛ إنْ كان مسلمًا أو غير مسلم هو من ضمن ما يستأهل التعليق والتحليل؛ وبخاصّة ما يتعلّق بخلل التوازن النفسيّ في شخصيّة الأنا والنفس المقترفة لهذه الجرائم. مع أنّ أصابع الغير نفسه مشهودة في هذه الورطة الإسلاميّة، وأنّ اعترافات العدو بأنّه ضالع في تعزيز الحركات التكفيريّة وحمايتها ودعمها بكلّ شيء هي مما لا يمكن إنكارها، غير أنّ الأنا والشخصيّة التكفيريّة لجهلها أو تعصّبها تجاه الآخر أو التخبّط المنهجيّ المعتمد لديها ولدى خطّها في فهم الإسلام وتفسير القرآن الكريم أقدمت على خطوتين غاية في الخطورة؛ هما: الانتحار، والإرهاب.

إنّ التكفيريّ يوجّه التهديد الأوّل ضدّ النفس والأنا غير الكريمة المهانة، والثاني ضدّ الآخر.

أولًا: تشريف النفس الإنسانيّة:

كرّم الله تبارك وتعالى النفس الإنسانيّة وشرّفها في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]. فأنْ يحمل الله الإنسان في البرّ والبحر ويرزقه من الطيّبات؛ فهذا خير شاهد وأفضل دليل على تكريمه؛ لأنّ الإنسان بهذه الأوصاف سُخِّر له البرّ والبحر وما فيهما. وكذلك أُعطيت له نعمة أن يرتزق من أطيب ما على الأرض ويتجنّب الأشياء الخبيثة؛ إلّا إذا هو تعمّد في الضلال، وتجنّب الحقّ، واقترب من خبائث الأمور، أو حرم نفسه من خير البحر والبرّ، ورضي بالشيء الرديء. ولمزيد من التكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2].

إنّ علاقة الانتحاري بروح الإرهاب والاعتداء هي علاقة مكشوفة نفسيًّا وحتى دينيًّا؛ لأنّ «**من كَرُمَت عليه نفسه لم يهنها بالمعصية**»[3]؛ كما قال الإمام علي عليه السلام، و«**من كَرُمت عليه نفسه هانتْ عليه شهوتُه**»[4] وغضبه وتعصّبه وحقده تجاه الآخرين. وهذا الكلام الحكيم خير دليل على أنّ الاحتقار بالنفس وفقدان الكرامة والعزّة سيتسبّب في خلل نفسيّ ويؤدّي بصاحبه إلى انهيار الشخصيّة والنفس ودفعها باتجاه اقتراف عظيم الجرائم؛ لأنّ الدوافع الذاتيّة المختلّة تظهر في مظهر العناصر الموضوعيّة. وهذا خطر يسبّب كوارث على الحياة، ولكن بغطاء أمر مقدّس أحيانًا! فمن رخصت نفسه عنده، فلا يرى في أنفس الناس قيمة!

(1) سورة الإسراء، الآية 70.
(2) سورة الكهف، الآية 50.
(3) الليثيّ الواسطيّ، علي: عيون الحكم والمواعظ، ص439.
(4) نهج البلاغة، الحكمة 446.

وهَونُ النفس واحتقارها عند صاحبها يجعل الآخرين صيدًا وهدفًا سهلًا؛ حسب فهمنا لبعض النصوص الدينية. فعن الإمام الهادي عليه السلام: «**منْ هانَتْ عليه نَفْسُه فلا تأمنْ شرَّه**»[1] هو تعبير رائع من الإمام لتفسير خطورة النفس غير الكريمة والمهانة على الآخر. والآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن كرامة النفس الإنسانيّة وقيمتها لدى صاحبها وضرورة أن يشعر الإنسان بقيمة نفسه وأهمّيّتها وتكريمها، وأن يتجنّب في إذلالها واحتقارها والحطّ من قدرها كثيرة، وهي تأتي ضمن صيانة الإنسان والمجتمع من مخاطر النفس لو هانت وضعُفَت وذُلّتْ.

ثانيًا: متى تسقط مناعة الفرد والمجتمع؟

نذكر في ما يلي طائفة من الآيات الإلهيّة في القرآن الكريم هي غاية في الأهمّيّة، تحدّثنا عن مآلات انصياع النفس وانهيار المناعة وسقوط الصمود والمقاومة في جسم الفرد، ومن ثمّ في نفسيّة الأمّة:

1- الابتعاد عن الكتلة المؤمنة والاقتراب من الكافرين محرّم؛ لأنّ ذلك سوف يؤدّي إلى ضعف النفس وانهيارها والخلل في كيان الأمّة وتعبيد الطريق أمام المحاولات المخترقة للعدو في أعماق الجبهة الإسلاميّة: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾[2].

2- إنّ الموالاة للكافرين هي مخطّط المنافقين، وإنّ العلاقة مع الخطّ الاختراقيّ النفاقيّ لن يجتمع مع الولاء للمؤمنين، فهما خطّان نقيضان، فالولاء للكافرين والمنافقين سيفكّك جبهة المؤمنين، وسوف يشقّ صفّ المجتمع والأمّة، ويمهّد لكسر شوكتهم وتلاشي عزّتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن

(1) الحرّانيّ، ابن شعبة: تحف العقول، ص483.
(2) سورة آل عمران، الآية 28.

تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[1].

3- الركون إلى الظالمين هو حالة نفسيّة تشبه اللجوء إليهم على أثر ضعف النفس وقوّة الآخر الوهمّيّة؛ وهي لجوء خيانيّ يؤدّي إلى احتراق النفس والمجتمع الإسلاميّ، ويسبب عذابًا وخزيًا في الدنيا والآخرة: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[2].

4- وممّا يصيب المؤمن هو أنْ يتعثّر أمام محاولات المنافقين، فيقع في فخّهم، فيضع عندهم أسراره؛ وهي أسرار المجتمع الإسلاميّ؛ لو تسرّبت إلى الكفّار وخطّ النفاق وجيوب الكفّار في عمق الشارع الإسلاميّ، فمن شأنها أن تضرّ بالمؤمنين. فالمودّة والمحبّة والثقة والتعويل والولاء ينبغي أن تكون للمؤمنين وليس للكافرين والمنافقين؛ لأنّهم سيستعملون كلّ هذه العلاقة من المسلمين في عمليّة معاكسة ضدّهم، ويوجّهون ضرباتهم في عمق المجتمع الإسلاميّ، ويقومون بعمليّات تخريبيّة واسعة؛ مستغلّين ضعف النفسيّة وهوان شخصيّة المؤمنين؛ لو ركنوا إليهم؛ وهم على علم بطبيعة هولاء الأعداء العدوانيّة وتربّصهم بالأمّة وقادتها ومصالحها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[3].

5- من ذُلّ الإنسان أن يُلقي بالمودّة إلى أعداء خطّه وخصماء انتمائه. وهذا الهوان الذي يصيب النفس لأسباب مادّيّة أو نفسيّة خاصّة، تُحدث خللًا كبيرًا في المجتمع الإسلاميّ، وتدفع بالأعداء إلى أن يهيمنوا على

(1) سورة النساء، الآيتان 144-145.
(2) سورة هود، الآية 113.
(3) سورة آل عمران، الآية 118.

خطّ المؤمنين، ويسيطروا على الرأي العامّ أو المواقع الحسّاسة لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

6- الولاء؛ وهي حالة نفسيّة وسلوكيّة ينبغي أن تكون لشركاء الخطّ الإيمانيّ. والتعامل والتعاون مع الذين هم معتدون على الإنسان وخطّه وموقعه الفكريّ هو شاهد هوان وذلّ وعدم الثقة والإيمان القويّ، والعاقبة هي تجاوز الذات وتجاهل الأنا والنفس لصالح الآخر العدوّ؛ وهذا في الواقع نوع من العمالة للخصم، والنهاية ستكون سقوط الإنسان الذي سمح للعدوّ أن يخترق ويتغلّب ويتوسّع في عمق الأمّة ومجتمعه بالوسائل الناعمة والثقافيّة والنفسيّة أو حتى الأمنيّة العسكريّة أو المعلوماتيّة، وتسريب المعطيات القيّمة والمؤثّرة: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2].

7- من تناقضات الذات الإسلامية أحيانًا وتباياتها النفسيّة والشخصيّة أن يبني الإنسان علاقة ودّ وحبّ وولاء مع العدوّ؛ عدوّ خطّه، وعدوّ انتمائه. فخطورة النفاق والكفر المتسلّل هي في أنّها قد تأتي من أقرب العلاقات العائليّة التي يختارها النفاق؛ لصعوبة تحديد مصدرها، واستصعاب الإنسان تصديق اختراقها، ومن ثمّ تعقيدات المواجهة والصمود ضدّها؛ لما لها من تبعات على عرى العلاقات وأواصر الصلات العائليّة أو المجتمعيّة. ولكنّ التواصل العميل مع العدوّ، من خلال تبنّي العلاقة مع المتبنّين للفكرة العدائيّة ضدّ الله ونبيّه والمؤمنين؛ هو يتناقض وجودًا مع الإيمان بالله وبالمعاد والحساب فيه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾[3].

(1) سورة الممتحنة، الآية 1.
(2) سورة الممتحنة، الآية 9.
(3) سورة المجادلة، الآية 22.

8- إنّ إعمال الشدّة والرحمة حالتان نفسيّتان تطرآن على الإنسان وتصبغان جميع سلوكاته وتصوّراته، وتصوغان أبعاد حياته. فإنْ كانت الشدّة النفسيّة والصرامة والتصلّب من المؤمنين؛ بعضهم ضدّ بعضهم الآخر، والرحمة واللطف واللين والودّ باتت سمة العلاقة مع أعداء المؤمنين؛ كما نرى اليوم في طبقة واسعة جدًّا من الأنظمة الإسلاميّة والمجتمعات الإيمانيّة الصارمة مع المسلمين، واللّينة الخاضعة الخانعة مع أميركا والكيان الصهيونيّ؛ حينئذٍ سيحلّ الانهيار والضعف والهوان على النفسيّة والشخصيّة من جهة، وعلى مصير الأمّة ووضعها بشكل عامّ؛ من جهة ثانية. ولعلّ السقوط الحضاريّ والتخلّف في شتّى نواحي الأمّة هو من آثار هذه الانهيارات النفسيّة وضعف الشخصيّة الخاضعة للخصم والمعادية للذات. هي حالة عداء للذات والأنا؛ وهي خطّة تستهدف الذات الإسلاميّة والنفس لصالح العدو: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[1].

9- إنّ ظاهرة النفاق وجبهته ليست ممّا تحصل بين ليلة وضحاها؛ وإنّما هي عمليّة تحوّل سلبيّ وانهيار للذات عن طريق تدريجي وعبر مخطّطات من الخارج، ترتكز إلى التهديد والتطميع والتثبيط والتيئيس والإذلال وغيرها من طرق تدمير الشخصيّة وجذبها إلى الموالاة للعدوّ. والحقيقة أنّ ما يسبّب هذه الانهيارات هو توّهم أنّ الجبهة المؤمنة ضعيفة ومستضعفة ولا تملك قدرة على تعزيز النفس. وهولاء يتوهّمون أنّ الذهاب إلى العدوّ واللجوء السياسيّ أو الثقافيّ أو العقيديّ إليهم والانخراط في خطّ النفاق سيعزّز موقعيّتهم، ولكنّهم يجهلون ويتوهَّمون: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2].

(1) سورة الفتح، الآية 29.
(2) سورة النساء، الآيتان 138-139.

10- للأمّة الإسلاميّة خطّ موحَّد منسجم متناسق متحابّ متفاعل، فلا يُعقل أن يحدث اختراق في عمق الشارع والمواقع المهمّة للمسلمين عبر خطّ النفاق والتجسّس والكتمان؛ وإلا فأنّ النتيجة ستكون كارثيّة؛ لأنّ الوليجة؛ وهو الدخيل وغير الأصيل والمخترِق يمكن أن يسبّب التفكيك والتلاشي والتشتّت والتمزّق؛ وهي حالة، بل ظاهرة تتفاعل مع النفاق ومخطّطات الأعداء في عمق المجتمع، وتؤدّي إلى ضعف نفسيّ يدفع بصاحبها لاتّخاذ الأعداء وليجة وفكّ العلاقة مع الله والمؤمنين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[1].

11- ليس من العقلانيّة والحكمة أن يلقي الإنسان مودّته بالخطّ الذي يعاديه ويسخر من انتمائه ويمارس أبشع أعمال الاحتقار لدينه وعقيدته. هذه منهجيّة تسبّب ضعف الحالة الإسلاميّة؛ كما أنّها وضعيّة اجتماعيّة هدّامة نشأت بالأصل عن انهيار خلقيّ، وتلاشٍ في الشخصيّة والنفس؛ حينما يخسر المسلم ثقته بنفسه وإيمانه بخطّه لعناصر معيقة كثيرة من أشياء متنوّعة، يأخذ العدوّ خصائص كلّ شخصية بعين الاعتبار حين التسلل والاختراق واختيار الأشخاص والمخطّطات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

في ضوء ذلك كلّه، نجد أنّ النفس حينما تفقد العزّة والكرامة ويحلّ محلّها الهوان والذّل؛ فإنّ الأرضيّة تصبح ملائمة لولوج صاحبها الكبائر كلّها، ويستعدّ للشقاق والخلاف والفتنة؛ حسب ما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**من كرمت نفسه قلّ شقاقه وخلافه**»[3]. فمن لا عزّة له في نفسه لنْ يأبى ارتكاب الكبائر والمعاصي، ومن لا يعرف قيمة نفسه

(1) سورة التوبة، الآية 16.
(2) سورة المائدة، الآية 57.
(3) غرر الحكم، الحكمة 9051.

وكرامتها فلا يبالي بأيّ معصية، ومن لا يبالي بالمعاصي لاحتقار نفسه عنده وفقدان العزّة للنفس، فهو لن يبالي بارتكاب الجرائم في حقّ الناس الآخرين، ولكنْ إنْ كانت عزّة النفس المفقودة هذه مكبوتة، فهو يرتكب الجرائم تحت غطاء شريف أحيانًا، ضمن منطقة اللاشعور من نفسه. هذه في قضايا تتعلّق بالشخص، ولكنّ الأمر قد يصبح أكثر دمارًا وأشدّ فتكًا وأمقت على الأمّة حينما يستغلّ العدوّ هذه الشخصيّة التخاذليّة الضعيفة الساقطة، فيمرّر عبرها مشاريعه في تفتيت الصفّ، وضرب المناعة الإسلاميّة، وإعاقة تحقيق الحضارة والنهضة. وأغلب الحكومات والثورات والحركات الإسلاميّة عبر التأريخ وقعت في فخّ الانهيار النفسيّ والسقوط الروحانيّ، وتلاشي مناعة الشخصيّة المسلمة، فتهدّدت أركان المخطّطات الإسلاميّة، وانكسرت شوكة المسلمين؛ لأجل الأهواء التي سيطرت والشهوات التي غلبت.

ثالثًا: الجذور التاريخيّة للحركة التكفيريّة:

عودًا إلى الجذور التاريخيّة للحركة التكفيريّة في المجتمع الإسلاميّ، نشير إلى القناعة التكفيريّة المتجذّرة في اليهود وغيرهم من الفئات المترافقة مع انبثاق المجتمع الإسلاميّ واتّخذاهم أساليب غير منطقيّة في الوقوف أمام تغلغل الإيمان والإسلام في أرواح الناس وقلوبهم وعقولهم، والأخطار التي كان يشعر بها اليهود والنصارى في ما لو تطوّرت الحالة واكتسح الإسلام عصرهم.

إنّ روح الإقصاء واعتبار الآخر «ليس على شيء» -كما يعبّر القرآن الكريم عن مقولتهم الإقصائيّة والإلغائيّة للآخر- تختزن قدرة تدميريّة هائلة وتؤسّس لمنطق المواجهة وأدبيّات الصراع، وتعيق التواصل السلميّ والتعايش الإنسانيّ في المجتمعات. لو لاحظنا السمات التي ذُكرت في القرآن الكريم عن اليهود والنصارى يأتي من ضمنها كشف الحالة النفسيّة

الإقصائيّة في كلّ منهما ضدّ الآخر، وعدم وجود قناعة بإمكانيّة التواصل في منطقة مشتركة دينيًّا أو إنسانيًّا بين الأنا اليهوديّة تجاه الآخر المسيحيّ، أو بين الأنا المسيحيّة تجاه الآخر اليهوديّ. وفي ما بعد نجد في التأريخ أنّهما تحالفا حينًا وتخالفا أخرى في اعتبار المسلمين ليسوا على شيء!: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾[1].

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يُبيّن به تعالى تناقضَهم وتباغضَهم وتعاديهم وتعاندَهم. كما قال محمد بن إسحاق: حدثني محمّد بن أبي محمّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لمّا قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريملة ما أنتم على شيء، وكفرَ بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. وجَحَد نبوةَ موسى وكفرَ بالتوراة»[2].

استشهادنا بقول ابن كثير في نقل الخبر؛ لإثبات أنّهما كانا يكفران ببعضهما ويحجدان ببعضهما؛ وهذه روح التكفير والجحد بالآخر. فالتعويل على الأنا؛ تكبّرًا وكبرياءً من شأنه أن يسحق السلم والأمن والمجتمع برمّته. هذا مع أنّ الشريعتين: الموسويّة والعيسويّة كانتا في الحقيقة مرحلتين لديانة سماويّة واحدة، وكان في التوراة والإنجيل ما يكفي لإقناعهم بذلك. فمن غير المعقول والمنطقيّ أن تتعمّق روح الإقصاء والنفور والحقد بين أتباعهما إلى درجة النفي الكلّيّ والتهميش الكامل لكلّ منهما من جانب الآخر. وقول اليهود والنصارى بأنّ الآخر هو ليس على شيء يدلّ على قمّة الاحتقار والنظرة الدونيّة إلى الآخر، والنظرة الاستعلائيّة إلى الأنا. ومن

(1) سورة البقرة، الآية 113.

(2) الدمشقي، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ج2، ص22.

الواضح والبديهيّ أنّ مجتمعًا ينظر بعض أهله إلى الآخر بهذه النظرة لن يكون المجال فيه ملائمًا للسلوك الأخلاقيّ والإنسانيّ، ولا معنى لمفهوم التعاون على البرّ والتقوى، أو الشراكة الإنسانيّة والتعايش السلميّ بأي معنى؛ لأنّ وصف «ليس على شيء» هو أشبه تعبير عن الرغبة في النفي الوجوديّ، وتبرير المواجهة والصدام؛ للقضاء على الطرف الآخر. وهذه الرؤية هي من أهمّ جذور الروح الإقصائيّة اليهوديّة في التكفير والنفي والنزاع.

وفي المقابل يبدو أنّ خيريّة الأمّة في قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1] هي خيريّة تعود إلى الإنسانيّة والأخوّة في الأمّة في تعامل أفرادها مع بعضهم، وفي التواصل مع غيرهم على الأسس القيميّة الأخلاقيّة؛ لأنّ خيريّة الأمّة ترجع إلى روح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك تعود إلى محبّة الآخر، وطلب الخير له، والسعي لهدايته، وتقاسم الخيرات المادّيّة معه، ودعوته إلى سبيل الربّ؛ بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن؛ وهي صفات وسمات إنسانيّة رائعة يجب اتّخاذها نبراسًا في منطق التواصل بين الأنا المسلمة والآخر المسيحيّ أو اليهوديّ. هذه السلوكات الخلقيّة الرائعة هي التي تؤهِّل الأمّة لتكون الأمّة الفضلى وخير الأمم؛ وهي التي تصنع مجالًا حيويًا في الحياة الاجتماعيّة على الركائز الأخلاقيّة والصفات السامية الراقية الداعمة للسلم والأمن. وهذا على خلاف سلوك اليهود والنصارى في الشعور بالتفوّق والاصطفاء والخيريّة، عبر نفي الآخرين وإقصائهم واحتقارهم في كلّ شيء.

إنّ روح التكفير والجحد هذه انتقلت إلى المسلمين الأوائل عبر الجهود الخبيثة التي بذلها اليهود الأوائل، وهذه قصة طويلة ستخرجنا عن غرض

(1) سورة آل عمران، الآية 110.

المقالة، ولكنّ الأمويّين المتورّطين مع اليهود منذ القِدم وإلى اليوم، سعوا في خراب الأمّة، وعملوا على إقصاء أهل البيت عليهم السلام؛ بالتكفير، والجحد، وسحب المشروعيّة؛ بكلّ الوسائل الممكنة منها، وتوظيف رجال لهم مقام وجاه عند الناس البسطاء وتوزيع الأموال عليهم، وشراء الضمائر، وصناعة المنابر الزائفة، واختلاق الأخبار بالتهديد والتطميع، وبثّ الرعب والفزع بين الناس، وغيرها من الأساليب الإعلاميّة والماديّة والعدوانيّة، ولكنّ سلاح التكفير وسحب المشروعيّة الدينيّة ونعتهم أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله بأوصاف الخوارج وما شابه كان أمضى وأقدر!

لقد استمرّت الحركة التكفيريّة واستغلّتها الحكومات والأنظمة؛ كما غيرها من الوسائل السالفة الذكر حتّى وصلت اليوم إلينا، غير أنّ هذه المرّة ليست الحركة الصهيونيّة اليهوديّة وحدها وراء تعزيز مواقع الإرهاب والتكفير الأمويّ، وليس التحالف بين الأمويّة المعاصرة واليهود هو السبب الأوحد وراءها؛ وإنّما بين جميع القوى العظمى. فهذه الحركات التكفيريّة نوع من التحالف غير المخطوط والمكتوب، هي تبادل مصالح استراتيجيّة عليا بين الأمويّة المعاصرة واليهوديّة تجسّدت مؤخّرًا في بعض تفاصيلها بدعم الجيش الصهيونيّ المباشر للتكفيريّين في سوريا؛ أرضًا وجوًّا وبحرًا، وكذلك تقديم خدمات إلى الجرحى في مستشفيات داخل الأراضي الفلسطينيّة المحتلة. هي حقيقة ناصعة أنّ اليهود؛ تاريخيًا وإلى اليوم، يدعمون الحركات التكفيريّة، وهم أنفسهم على هذه الخصلة السيّئة. وما أصاب المجتمع اليهوديّ والمسيحيّ على مرّ التاريخ من التباعد والتباغض والتناقض والتنازع انتقل بعينه إلى داخل الأمّة الإسلاميّة اليوم!

إنّ طبع التكفير لا يرضى إلا أن يتّبعهم الإنسان المُكَفَّر ويتخلّى عن عقيدته. هذه هي المشكلة الكبرى في التعامل مع التكفيريّ؛ لأنّه يسحب الشرعيّة عنك كلّيًّا فلا يبقى مجال للحوار والتعاون والتوافق بالمطلق، إمّا الاستسلام الكامل للتكفيريّ أو القتل والقتال. ولعلّ الآية الكريمة تشير إلى

هذا الأمر: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[1].

فروح الإقصاء والتكفير السائدة بين اليهود والنصارى هي نفسها كانت قائمة وجارية في منطقهما مع النبيّ الأكرم ﷺ والإسلام. وعليه لم يكن أحد منهما يرضَى بالتواصل والتعامل مع النبيّ ﷺ، ووضعوه بين أحد خيارين: إمّا التبعيّة المطلقة والتخلّي عن الديانة الجديدة، وإمّا المواجهة والتكفير والجحد والرفض المطلق وخلق المشاكل والحروب المباشرة أو بالنيابة. هذا إقصاء للآخر بالمطلق؛ بهدف إخضاعه لانتماء «الأنا» وجعلها تابعة عبدًا خاضعة لا رأي لها ولا حرّيّة في معتقدها ولا سيادة لها في قرارها.

إنّ قراءة متأنّية للحركات التكفيريّة ونمط تعاملها مع العالمين الغربيّ والشرقيّ، أو الإسلاميّ والمسيحيّ، والعربيّ وغير العربيّ؛ وفق النمط والأسلوب والخطاب الإقصائيّ نفسه، يكشف لنا عن مشكلة حقيقيّة هي بنية تفكير هذه الحركات، في تناقض تامّ مع الأدب القرآنيّ الذي يدعو إلى الرحمة والتسامح والأخلاق والمرونة والنصح والموعظة الحسنة والحكمة مع الناس جميعًا؛ إلّا من اعتدى، فهو يجب أن يواجه؛ لأنّه يسبّب الفتنة والبغي والخراب والنزاع وغيرها ممّا لا علاقة له بفرض عقيدة أو ديانة؛ وإنّما المصلحة العامّة قد تقتضي أن تكون ضمانات معيّنة من العقائد والفرق التي تعيش مع المسلمين؛ لمنع تحرّكها ضدّ القواعد النظاميّة والاجتماعيّة المدنيّة في العيش، ولكي يجتنبوا السعي إلى المؤامرة والعمل على تفكيك الأمّة وتخريب علاقاتها. ولكنْ في ما يخصّ المعتقدات والانتماءات فهم أحرار، لا فرض عليهم، ولا يُطلب منهم أن يغيّروا شيئًا منها؛ ما دامت هي لا تفسد الواقع الاجتماعيّ.

(1) سورة البقرة، الآية 120.

إنّ الأدب القرآني وخطابه الرحمانيّ ينصّ على الخطاب العامّ للناس في القرآن الكريم، على الرغم من وجود بعض الخطابات الخاصّة للمسلمين والمؤمنين، ولكنّ القرآن في أسسه العقيديّة والأخلاقيّة والفقهيّة يعترف بالناس ومعتقداتهم، ويؤسّس منهجًا ربّانيًا لرشدهم وهدايتهم بأسس من الرحمة والهداية النبويّة، وبالطرق التي فيها ترشيد لوسائل الدعوة وتعميق في تأثيرها وإصلاح الإرادة والنفس، دون اللجوء إلى سلب الحقوق الأساسيّة أو نفي البنية الإيمانيّة منهم وإشعارهم بأنّهم ليسوا على شيء، ولكنّ الله يثمّن في الناس الكرامة التي كرّمهم بها، والفطرة التي فطرهم عليها.

ومن أجمل المواقف القرآنيّة وأروعها طبعًا وأعظمها حثًّا على قبول الإسلام والرحمة العالميّة المحمديّة؛ هي الآيات التي تدعو إلى بذل الرحمة والعفو واحترام غير المؤمنين، بل المودة معهم دون أن يشترط كلّ ذلك بشرط التخلّي عن العقائد المنحرفة والإيمان بالله وبالإسلام. ولكنّ التعامل مع المعتدين ومع الأعداء يختلف تمامًا؛ لأنّ الاعتداء يسلب حقّ الإنسان والمجتمع ويعرِّض الحياة كلّها للخطر؛ بقطع النظر عن عقيدة المعتدي. قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

بناءً على فهمنا للآية، نلاحظ أنّ الله -سبحانه وتعالى- يحثّ المسلمين على أن ينظروا، إلى الذين سبق أن حدث لهم معهم قتال ومعاداة، نظرة المودّة والرحمة والتجاوز عمّا سبق. وعلى الرغم من أنّ المواجهات السابقة كان في بعضها الدم والقتل والاعتداء من المشركين، غير أنّ العفو والرحمة والتجاوز هي صفات لو تحلّت بها الذات، فإنّها ستصلح النفس والعلاقة مع الآخر أيضًا، وتقضي على الحقد والنفور والصراع. وكذلك نشهد أنّ بعض الآيات تزيل المانع من أمام المسلمين والمؤمنين من أن يتعاملوا مع المشركين

(1) سورة الممتحنة، الآية 7.

بالبرّ والخير والإحسان والعدل؛ إنْ كان هولاء غير معتدين. فمجرّد أن يكون الآخر على تناقض عقيديّ وتباين فكريّ مع الذات لا يبرّر أن نلغيه أو نجحده أو نبعده ونبغضه، بل من المفيد، في بناء العلاقات الإنسانيّة مع الآخر، أن نحترمه ونحسن إليه ونعدل معه ونحبّ هذا الآخر غير المعتدي. **قال الله تعالى:** ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

وأمّا المنهيّ عنه في قول الله تعالى في آخر الآية التالية؛ فهو التولّي والموالاة للظالمين والمعتدين، وليس الإحسان والقسط والبرّ إلى المختلف في العقيدة. هنا الفصل مهمّ ومبدئي حاسم بين الآخر المشرك غير المعتدي على الناس وغير القاتل في الدين؛ والذي في الواقع هو على عقيدة أخرى تمامًا، وبين الذي يقاتل في الدين؛ أي يسعى ليمنع ظهور الإسلام وإقبال الناس عليه بالاعتداء والقتال، ويقوم بالاعتداء على المسلم وإخراجه من دياره لفرض التولّي والاستسلام عليه.

وعليه، فإنّ الآخر المخالف في العقيدة يُحظى بتصرّف عادل وقسط ومودّة حينًا، وبالمواجهة والرفض وعدم الولاء والمودّة في حين آخر. من هذا المنطلق، فإنّ هذه الآيات وغيرها عشرات، بل مئات من الآيات الأخرى هي تدعو إلى الرحمة والعطف والحنان والودّ في مقام التعامل مع الآخر؛ إنْ لم يكن متخطرسًا متفرعنًا معتديًا معاديًا. وإنْ كان على سبيل إخضاع المسلمين وممارسة العداء والقتال والبغي والفتنة ضدّهم؛ فإنّ المخطّط الشرعيّ والحكم الإلهيّ يختلف، ولكنْ ضمن حدود دقيقة جدًّا. والآية التالية تشير إلى هذين المناخين والظرفين المختلفين والأحكام الخاصّة لكلّ منهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ

(1) سورة الممتحنة، الآية 8.

إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾[1].

رابعًا: الأنا التكفيريّة ومشروع التدمير المنهجيّ الذاتيّ:

أشرنا سابقًا إلى مقولة الانتحار التكفيريّ وجذور هذه الظاهرة النفسيّة وفقدان الكرامة والعزّة والاحترام للنفس والآخر معًا، ومدى تأثير هذه الخصائص على أن يسترخص المُنتحر التكفيريّ نفسه وروحه، فيفجّر جسده بين الأبرياء دون مبالاة بالضحايا. ولا نقصد إنكار العناصر الأخرى في تكريس روح الانتحار واحتقار النفس؛ كالمناهج المغلوطة في فهم الدين، أو الوسائل الخاطئة في تفسير مفاهيم الجهاد والاستشهاد وأمثالهما، ولكنّ العمق السيكولوجيّ لرخص الأرواح عند التكفيريّين بلغ مستوى غريبًا هو أشبه بالإباحة في القتل وسفك الدماء والذبح والإرهاب.

إنّ الطرق التي يبدع فيها التكفيريّون في قتل المسلمين قد كثرت وتنوّعت ووصلت الذروة في الوقاحة والفساد والبشاعة؛ وهي سلوكات لا يمكن أن تستند إلى نصّ أو اجتهاد أو مدرسة فقهيّة أو فكريّة إسلاميّة، ولكنّها جرائم منهجيّة يقوم بها التكفيريّون المرضى نفسيًّا، والذين لا يعطون لأنفسهم وأرواحهم قيمة في الواقع، فلا يبالون بشيء. هذه الحالة تستقرّ في شخصيّاتهم وتتحلّى بها أنفسهم بالوسائل الدقيقة والأساليب الخاصّة التي يتمّ تبنّيها لتحقيق غسيل الأدمغة وتدمير الشخصيّة والنفسيّة عندهم؛ ليصبحوا وحوشًا يرتكبون كلّ جريمة دون رادع أو خوف أو وخز في ضميرهم.

(1) سورة الممتحنة، الآيتان 1-2.

ولعلّ أفضل طريقة لغسل الدماغ وإعاقة النفس عن الإدراك للخير والشرّ، وتحويل الإنسان عبرها إلى أداة يحرّكها الآخرون بعناوين مبسّطة، دون أن يبذل الضحيّة أيّ جهد للمقاومة والصمود؛ هي دسّ النفس ووأدها في حفرة تنقطع فيها عن عناصر الإحساس والحياة؛ وهذا من أبشع المطالب وأخبث المشاريع! فالنفس المدسوسة غير قادرة على الإحساس بالحقائق، فيفعل صاحبها ما يُطلب منه بغطاء خاصّ؛ كالذي غشي عليه، فيتحرّك دون أن يعِيَ شيئًا من ذلك.

وقد أكّد القرآن الكريم على أنّ النفس الإنسانيّة ملهمة فجورها وتقواها في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]؛ فبحسب الآية الكريمة إنّ الله تعالى خلق النفس وسوّاها، ومن ثمّ أودع فيها بالإلهام والفطرة عناصر الفجور والتقوى معًا؛ أي أنّ صاحبها يملك القدرة على أن يعِيَ ويميّز بين ما هو ملائم للفجور، وما هو مناسب للتقوى. فالفجور هو أن لا يعرف الإنسان حدًا فَيَفْجُرَ أمامه[2]؛ أي يطغى على أيّ حدّ أمامه، فيتحرّك دون رادعٍ أو مانعٍ أو عائقٍ؛ من شرع سماويّ، أو دستور اجتماعيّ، أو وازع أخلاقيّ. يمضي وفقًا للشهوة والرغبة والهوى. هذا هو الفجور، وأمّا التقوى فلها معنى مناقض للفجور تمامًا؛ لأنّ الكلمة هذه من الوقاية والحماية والردع والامتناع أحيانًا. إنّ التقوى والفجور هما صفات النفس بالقوّة الملهَمة من عند الله تعالى.

فالضحيّة التي يُراد لها أن تفعل كلّ شيء بأمر خارجيّ، أو بإيحاء من نفس مريضة وقلب يسوده الهوى وحالة نفسيّة مرَضيَّة، يُزرع في داخلها ما يُراد لها فعله؛ بغطاء دينيّ أو أيديولوجيّ يشبهها، وتُسلب عنها الإرادة والاختيار والقدرة على التمييز، وتُزال من أمامها كلّ موانع التجنيد؛ وفق تخطيط وبرمجة مدروستَين. ومن ثمّ على المخطّطين والمبرجمين لهذه

(1) سورة الشمس، الآية 8.

(2) الإشارة إلى سورة القيامة الآية الخامسة: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾.

الشخصيّة التكفيريّة أن يقضوا على هذا الإلهام الإلهيّ المزدوج؛ أي الوعي العميق الذاتيّ بالفجور والتقوى في الآنا المسلمة هنا؛ لأنّ التعقّل فيهما سيمنع الانتحاريّ من أن يُفجّر نفسه بين الأبرياء، أو أن يقتل عباد الله في بيوت الله في أرض الله، بتفجير نفسه باسم الله وسنّة رسول الله، بغية جنّة الله!

إنّ استراتيجيّة دسّ النفس، وتعطيل الجانب الملهَم فيها، وتمويه براهين التقوى والفجور ومعالمهما، وإعاقة تمييزهما، وإسقاط الإرادة والعقل في التكفيريّ الانتحاريّ؛ هي الوسيلة الفضلى والسبيل الأنجع في تحقيق الهدف القذر. ومن نتائج دسّ النفس هي الخيبة التي تأتي معها جميع الشرور والمفاسد والفسوق؛ لأنّ الأنا المسلمة المتّقية الواعية المميّزة بين الفجور والتقوى قد تحوّلت كائنًا وحشًا جديدًا يفترس ويقتل ويرتكب أبشع الجرائم دون الشعور بالذنب أو لوم في الضمير.

ولأنّ وسائل التمييز والموازين النفسيّة الملهَمة والفطريّة قد قُضِيَ عليها أو أُخمِد نورها وأُخفِي ودُسّ؛ حسب التعبير القرآنيّ السننيّ الكونيّ، فإنّ الشخص المستهدَف الأوّل هو نفسيّة التكفيريّ والانتحاريّ الذي سقطت قيمة الحياة والروح عنده، فلم يعد ينظر إلى نفسه على أنّها شيء ثمين وقيّم يلزم الحفاظ عليه؛ إلّا في لحظة معيّنة يجود بها للحفاظ على الناس ولحماية أرواح الناس. ولكنّه الآن ينظر إلى حياته وروحه على أنها أرخص شيء، فيسهل عليه أن يسخو بها، دون التفكير في النتيجة الواقعيّة، وبدون إعمال العقل والنظر والتفكير والحكم الشرعيّ حتى! قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾[1].

(1) سورة الكهف، الآيات 103-105.

إنّ التكفيريّ الفاقد لموازين النفس الملهَمة بالتقوى والفجور، والذي دُسّتْ نفسه، وأُخفي عقله، وطُمست إرادته، لا يستطيع القيام بالمحاسبة الدقيقة لأعماله وتبعاته، أو إدراك حجم الخسائر التي يتركها في المجتمع، ولا يعي هل إنّه فعلًا يُحسن الصنع أم يُسيئه؟ إنّ سعيه ضالّ منحرف عن الجادة وبعيد عن الضوء، فلا يحقّق له سعيه غير الخسارة، وهو إلى التخبّط أشبه منه إلى السعي الهادف.

والإشكاليّة الكبرى هي أن تضيع الأنا الواعية، فتضلّ ضلالًا بعيدًا، بحيث يفقد الشخص معها كلّ قدراته العقليّة في التفكير والتعقّل. هي الداء الأكبر في الأنا التكفيريّة الفاقدة للإحساس الطبيعيّ أو التفكير المنطقيّ؛ لذلك كانت من أهمّ تقنيات تأهيل هولاء وغسل أدمغتهم سلب التكفيريّ القدرة على التفكير؛ لأنّ التفكير لو أتاه بصورة حقيقيّة قد يُلغي تكفيره وانتحاره. وعليه فيجب أن يُمنع التكفيريّ من أن يعِيَ ويفكّر ويتأمّل في ما يفعله ضدّ نفسه، أو في ما يرتكبه ضدّ غيره.

ومشكلة التكفيريّ أنّه يظنّ نفسه على حقّ، فيفقد بذلك كلّ إمكانيّة للتفكير، فلا يمكن الحوار معه، ولا يمكن السعي لهدايته؛ لأنّه يرى الناس جميعًا في الضلال والانحراف والكفر، ويرى كلّ محاولاتهم أيضًا في هذا الاتجاه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[1].

فالمحاسبة الخاطئة مصيبة وسبب مشكلات هائلة في الأمّة الإسلاميّة، ولكنّ الأدهى والأمرّ أن يصل بعض المسلمين إلى درجة يفقدون القدرة على المحاسبة أصلًا. وهذه هي حال التكفيريّ الذي بإرادته تبنّى فكرة إقصاء إرادته وتسليم نفسه إلى بحر من الأوهام، فخلط بين الصديق والعدوّ، وتشابه الأمر عليه في ما يخصّ مصالح الأمّة ومفاسدها وفقد

(1) سورة الأعراف، الآية 30.

القدرة على النظر والتفكير والتأمّل والتعقّل، فارتكب جرائم كبيرة بحقّ الأمّة قبل نفسه! إنّ العقيدة التكفيريّة الإرهابيّة هي تدمير منهجيّ شامل لمكتسبات الأمّة عبر قرون، وتضييع لفرصها للنهوض في القرن المعاصر. فإرادة العدوّ على سحق المسلمين تجسّدت في لا إراديّة ولا عقلانيّة الفعل الانتحاريّ للتكفيريّ.

في الواقع إنّ سلاح التكفير موجَّه إلى الأنا الإسلاميّة قبل أيّ شخص آخر؛ لأنّ التكفير نفسه عمليّة تدميريّة داخليّة تستهدف وحدة الأمّة ومناعتها وصمودها ومقاومتها. فالتكفيريّ يضيِّق إطار الأنا ليشمله هو ومسلمين قلائل معه يشبهونه تمام الشبه. وما يقوم به هو التفكيك والتجزئة والتمزيق للذات الإسلاميّة وهو يتوهّم أنّه يحسن الصنع، فيضرب الآخر، والحال أنّه يقضي على الذات ويُهلِك النفس!

خاتمة:

إنّ المشكلة الكبرى في العقل التكفيريّ والأنا المنتحرة والمفخَّخة ضدّ الذات هي أنّها ليست في الاستعداد للموت في سبيل الله؛ لأنّ روح الاستشهاد والفداء في سبيل الله في الجهاد المشروع؛ إنْ تطلَّب الأمر ذلك، هي لأجل أمر غاية في الأهمّيّة في حياة الأمّة والمسلمين، بل إنّ قوام الأمم وبقاء الحضارات هي رهينة بذلك. ولأنّ الفلسفة الكبرى للجهاد هي حفظ الأمّة من الغزو والهجوم والاحتلال والدمار، ومنع قتل المسلم، بل غير المسلم، والحؤول دون تعريض الأعراض للانتهاك وتعريض الشريعة والإسلام للهتك وما شابه ذلك.. نرى أنّ الحركة التكفيريّة هي نفسها تقوم بكلّ ذلك نيابة عن جميع أعداء الإسلام في العالم! وعليه فلا يظنّ أحد أنّ استهداف الحركة التكفيريّة يؤدّي إلى إضعاف روح الاستشهاد والجهاد في الأمّة ونزع هذه القدرات الدفاعيّة الفعّالة عنها!

فالجهاد إذا كان مكتملَ الشروط في المكان والزمان والموضوع الصائب؛ فإنّه يكون جهادًا صادقًا حقيقيًّا وفعلًا واعيًا دقيقًا محسوب الخطوات والتبعات بتعقّل وتروّ وحكمة. وله أحكام وآداب وشريعة دقيقة تُحفظ فيها وبها الحرمات والأنفس والبلدان، ويمنع معها الانتهاك والتخريب والاغتيال والذبح والقتل والمثلة بالقتلى أو الإجهاز على الجرحى، وما شابه ذلك من أدقّ الأحكام. فلا يتوهمنّ بعض الناس أنّ الجهاد مشاعر وأحاسيس وإطاعة عمياء وحركة فاقدة للتأمّل والتأنّي والحكمة والتفكير والتخطيط والتعقّل، ولا يذهبنّ أحد منّا إلى المقارنة بين الفعل التكفيريّ الانتحاريّ الأعمى والإجراميّ وبين الفعل الجهاديّ الدفاعيّ العقلانيّ الأخلاقيّ المحسوب والمنطقيّ، فبينهما ما بين الأرض والسماء.

ولكي لا يتوهّم الإنسان الاستغناء العلميّ والدينيّ والعقليّ؛ فيطغى[1] بعد التورّط في الغرور والتكبّر، كان عليه أن يقدّم الجهاد الأكبر على الجهاد الأصغر؛ لأنّ كلّ حركة مسلّحة يقوم بها مسلم لا يمكن اعتبارها حركة جهاديّة. هذه أوّل المشكلة وأساس الأزمة أن يتوهّم الشباب المسلم بأنّ القتال ضدّ غير المسلمين هو جهاد في كلّ الأحوال. ليس الأمر هكذا؛ لأنّ القتال والجهاد هو مشروع ضدّ العدوّ المعتدي المهاجم عسكريًّا في الحالة القائمة، وأمّا الذهاب إلى المجتمعات الكافرة وتعريض الشارع المدنيّ منهم للإرهاب؛ فهي عمليّة إرهابيّة، وليست جهاديّة، والفاعلون يقترفون هذا الأمر لسفاهتهم وجهلم بأبسط قوانين الإسلام الاجتماعيّة، ولعدم وعيهم لحقيقة الجهاد وظروفه وشروطه.

فلا بدّ من التأكيد على حقيقة أنّ الجهاد الأكبر؛ أي جهاد النفس هو الضامن لسلامة حركة الجهاد المسلّح؛ وهذه الحركة تحتاج إلى أمر من الحاكم الإسلاميّ الرشيد الصالح أو من المرجعيّات الدينيّة العليا، وليست

(1) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ (سورة العلق، الآيتان 6-7).

حالة عاطفيّة انفعاليّة، وليست مجرّد هيجان نفسيّ ينتاب الشباب، فيبادرون إلى أبشع التصرّفات وأكثرها توحّشًا باسم الجهاد!

إنّ ما يجري اليوم في العالمين العربيّ والإسلاميّ بقيادة بعض البلاد الإسلاميّة؛ من قتل منهجيّ، وذبح، وتقطيع الجثامين، والاعتداء، والاغتصاب، وكلّ العمليّات الإرهابيّة البشعة في حقّ الأبرياء من النساء والرجال والأطفال؛ في مستشفيات تُقصف، ومدارس تُدمّر، وشوارع تُفَجَّر، وأسواق تُسوّى بالأرض مع أهلها.. هي ليست عمليّات جهاديّة؛ وإنّما هي تخريب لسمعة الإسلام، وتحويل الصورة العالميّة عنه إلى البشاعة، والإمضاء التأييديّ على الصورم النمطيّة التي يحاول الصهاينة في العالم رسمها الإسلام ورسوله ﷺ!